﴿ .. حَنِيفاً ..﴾

﴿ .. حُنَفَـاءَ .. ﴾ (١)

حسن الحاج

من هناك؛ ومن مكان مقفرٍ وسط وديان صحراوية قاحلة، وجبال راسية شاهقة شامخة، صخورها قاسية، مغاراتها مخيفة، لايشعر إنسانُها بالأمان إلاّ بالإيمان وحده، من بقعة رمال وطأتها قدما نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام؛ يقف عليها، ينظر تلك الطبيعة القاسية من حوله، تُثقله عواطف الأبوّة وإشفاقُها، يحدوه الأمل والثقة بالله تعالى، وهو ينفّذ أمر ربِّه؛ مستسلماً لقضائه تعالى، صابراً على بلائه، فيودع بضعةً منه في تلك البقعة النائية، القاسية طبيعتها، المحفوفة بالمخاطر والمخاوف:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾.[1]

فكتب الله تعالى لتلك البقعة أن تكون مباركة بما بذره إبراهيم عليه السلام فيها من ذريّة طيبة، وبفضل ذلك البيت؛ تستمدُّ منه الفضائل، وتظلّلها منه البركات؛ فتنطلق منها الحياة والخيرات بعيداً إلى كلِّ فجٍّ عميق..!

من هناك انبثقت الكلمةُ الطيبةُ؛ الحنيفيّةُ الحقّةُ؛ بفضل هذا النبيّ الشكور الأواه المنيب..، وتلك البذور المباركة، وذلك الدعاء الخالد، وتلك الصلاة القائمة: ﴿**رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾، كلمة واحدة لا غير ﴿**الصَّلَاةَ**﴾، إلاّ أنها تحمل المشاريع التوحيدية، والمعاني الأخلاقية، والأهداف الاجتماعية، والأبعاد الإنسانية، والتي لا تُعدُّ ولا تُحصى..، لم يشأ إبراهيم عليه السلام وهم يؤدّون هذه الصلاة، وهم يحملون تلك البركات، وهم يؤسّسون لذلك العطاء الخالد، إلاّ أن يشاركهم غيرهم فيها، فرفع كفّيه يدعو ربَّه قائلاً:

﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**﴾،

﴿**فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ**﴾، تجيء إليهم بشوق، تنزع إليهم برغبة، تسرع إليهم بمحبّة، تعبد الله وحده، فتشعر بجمال الانتماء إليه، وبجلال التوجّه إليه، تتسابق في إقامة دينه، فهمّة الصالحين في إقامة الدين، الحنيفيّة الحقّة، وتبليغها، والمحافظة عليها...

﴿**وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ**﴾

أن يُحيي ذلك المكان الأجرد بمقومات الحياة الصالحة وأسبابها، فكان ذلك الرزق نعماً تفيض، وثماراً تُجنى، وطعاماً وماءً..، فانقلب ذلك المكان قاعدةً لعطاءٍ دائمٍ، وخيرٍ يُستمد، وهدًى يُتبع؛ ولانطلاق عقائد إيمانيّة وشرائع ومفاهيم وآداباً...

---

١. سورة إبراهيم : ٣٧ .

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، يؤدّون حقَّها إيماناً وعملاً بها، يُحافظون عليها، ينطلقون بها، يُبلغونها، يدعون إليها، فتنتشر وتتسع آثارها، منطلقةً في بقاع أُخرى قريبة منهم أوبعيدة عنهم؛ وتبقى أصداؤها وثمارها تتناقلها تلك الأفئدة، جيلاً فجيلاً؛ ليبقى مشروع نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام خالداً شاملاً كافةً للناس ورحمةً لهم!

فلا غرابة إذا ما تجلّت الحنيفيّةُ الإبراهيميّة منظومةً توحيديّةً خالصةً بفضله وذريّته، وبفضل ذلك الدعاء، وتلك الصلاة، وتلك الأفئدة المباركة، وتلك الثمرات...، ولا غرابة أيضاً أن تخلد قيمُها وأبعادها، فكانت منها كلُّ رسالة توحيدية، وانتسبت إليها كلُّ بعثة نبويّة، وانتمى إليها الصالحون؛ يتعبدون بها، يفتخرون بالانتماء إليها..!

يقول الآلوسي: اعلم أنَّ العرب من عدنان وقحطان كانوا قبل ظهور عمرو بن لحي الخزاعي فيهم على بصيرة من أمرهم، يتعبدون بشريعة خليل الله سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقد تلقوها من ولده نبيّ الله إسماعيل عليه السلام وهي الحنيفية، التي جاء بها محمدٌ صلى الله عليه وآله فكانوا يعتقدون أنَّ الله تعالى واحدٌ لا شريك له ولا وزير ولا معين ولا ظهير... وقد آمنوا بكلّ ما أُنزل على نبيّهم صلى الله عليه وآله من أصول وفروع وأحكام، وكانوا يصلّون ويصومون ويحجّون ويزكّون، ويصلون الأرحام، ويعينون على نوائب الحقّ، ويكرمون الأضياف كلَّ الإكرام إلى غير ذلك من الأخلاق الحميدة والأعمال المرضية السديدة. فلما طال عليهم الأمد، وبعدوا عن زمن النبوّة كثر فيهم الجهل، وقلّت معرفتهم بما جاءت به شريعتهم من الهدى و الدين البيّن، وجروا على شهوات أنفسهم، واتبعوا كلَّ ناعق، وراجت عليهم الآراء الفاسدة، والمذاهب الخبيثة الكاسدة؛ حتى افترقت كلمتهم كلَّ الافتراق سيما بعد أن ظهر فيهم الخُزاعيُّ، وشرع لهم من الدين ما لم يأذن به

الله تعالى، فهناك انقسمت العرب إلى أقسام، وافترقوا إلى أصناف؛ حسبما أدّت بهم الوساوس والأهواء...[١]

ويبدو أنه لم ينته تأثيرُ الحنيفية الإبراهيميّة، وقدسيتُها في النفوس، وجلالُها، وحبُّها، والتحلّي بها، وعدم الابتعاد عنها، بل والاعتقاد بها والالتزام بقيمها ولو بمستوًى أو بكثير منها من قبل قلّة قليلة، حتى بعد أن عمَّ الشرك في ساحتهم، حين أدخلت عليهم عبادة الأصنام والأوثان، وصاروا يعشقونها، وجعلوها في أزقتهم وبيوتهم، وظلّوا لا يُفارقونها لا في حضر ولا في سفر، يُرافقونها في حلّهم وترحالهم، ولم يكتفوا بذلك، فنصبوها في البيت الحرام، وراحوا يحجّون إليها، يطوفون بها، ينحرون لها الهدايا، يتقربون إليها بالمناسك والمشاعر والقرابين، ولم يكتفوا بهذا، فراحوا يحللون ويحرمون حسب أهوائهم ومصالحهم...[٢]

لقد كان هناك من يدعي أنه على الحنيفية، وإن أشرك بالله تعالى، وارتكب المعاصي والموبقات، وهناك من زعم أنه على الحنيفية وإن شابت حنيفيّته أشياء كثيرة بحكم القرون، وبسبب ما أدخلوا عليها ما ليس منها، أو أنقصوا منها.. فيما هناك من بقي على الحنيفية حقًّا وكانوا قلّة وضعهم.

الآلوسي، تحت عنوان (الموحدون)، وقال عنهم:

وهم من استبصر ببصيرته، فاعترف بوجود الله وتوحيده، ولم يُدرك الإسلام، بل بقي على فطرته، ونظر بعين بصيرته، فلم يُغير ولم يُبدل، وهم بقايا ممن كان على عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ملتزمين ما كانوا عليه من تعظيم البيت والطواف والحجّ والعمرة

---

١. بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، محمود شكري الآلوسي ٢ : ١٩٤ ـ ١٩٥.

٢. انظر مقالة: الأصنام في العددين ٤٧ ، ٤٨ من هذه المجلة .

وغير ذلك... وهذا الصنف نزر يسير لم يكونوا إلاّ عدداً معلوماً في كلِّ عصر إلى زمن البعثة النبويّة المحمديّة.[1]

البعثة النبويّة التي جاءت تبعاً لإبراهيم عليه السلام، الذي كان من قبلُ ﴿**حَنِيفاً مُّسْلِماً**﴾، ولملّته ﴿**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾ ولكن بعد قرون، وانقطاع من الرسل، سمّاها التنزيل العزيز بالفترة كما في الآية الكريمة ﴿**... عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ...**﴾.[2]

حين اقتضت حكمته ورحمته ومحبته تعالى لعباده، فانبثقت البعثة النبويّة المباركة الخاتمة، فكان رسول الله محمد صلى الله عليه وآله خاتمَ الرسل والأنبياء، وكانت شريعته الخاتمة للشرائع؛ وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... بَعَثَنِي بالْحَنِيفِيَّةِ السَّهْلَةِ السَّمْحَةِ! أحبُّ الأديان إلى الله تعالى الحنيفية السمحة! إذا أمرتكم بشيء فائتوا منه ما استطعتم»!

ويبدو أنَّ هذا انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿**... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ...**﴾.[3]

أبو حيان: ﴿**مِنْ حَرَجٍ**﴾، من تضييق بل هي حنيفية سمحة، ليس فيها تشديد بني إسرائيل، بل شرع فيها التوبة والكفارات والرخص.

السيد العلاّمة الطباطبايي: وقوله: ﴿**.. هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ..**﴾، امتنان منه تعالى على المؤمنين بأنهم ما كانوا لينالوا سعادة الدين من عند أنفسهم وبحولهم غير أنَّ الله منَّ عليهم إذ وفقهم فاجتباهم وجمعهم للدين، ورفع عنهم كلَّ حرج في الدين امتناناً سواء كان حرجاً في أصل الحكم أو حرجاً

---

١. المصدر السابق .

٢. سورة المائدة : ١٩ .

٣. سورة الحج : ٧٨ .

طارئاً اتفاقاً، فهي شريعة سهلة سمحة ملّة أبيهم إبراهيم الحنيف الذي أسلم لربِّه...[١]

حقًّا أنَّ شريعته صلى الله عليه وآله وهي أحبُّ الشرائع إلى الله تعالى؛ قد بُنيت على اليسر والسعة، بعيداً عن العسر والإصر والأغلال، رحمةً بالعباد، تسهيلاً عليهم، وقد اتصفت بالوسطية والتسامح؛ حبًّا للإلفة، وبغضاً للفرقة، داعيةً بالصدق سيرةً، والبحث عن الحقيقة منهجاً.. فجعلت الدليل حجّةً ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾،[٢] والحنيفيّة ﴿**دِيناً قِيَماً**﴾، رغبةٌ بجنّةٍ ﴿**عَرْضُهَا ٱلسَّمَاوَاتُ وَٱلأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، وكرهاً لنارٍ ﴿**وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ..**﴾!

ولعلّ هذا وغيره الكثير جعلها مما اختصّت به بعثته وأُمّته صلى الله عليه وآله انطلاقاً من ملّة إبراهيم عليه السلام!

ولكن؛ أسفاً! فقد عقّدتها أفكارٌ هنا وأقلامٌ هناك، وشتّتها طوائفُ وعصبياتٌ، وأساءت لها أمانيٌّ وأهواء، ومواقفُ ظلامية، وممارساتٌ متطرفة وطقوسٌ؛ ما أنزل الله بها من سلطان!

إذن؛ لنقف عند الحنيفية والحنفاء عبر آيات قرآنية وأحاديث، وشخصيات ومواقف وحكم ومواعظ وأشعار...

فلغةً :

الحنيفيّةُ أصلها الفعل الثلاثي (**حَنَفَ**) يَحنِفُ حَنْفًا، وحَنَفَ فلانٌ عن الشيء: مالَ، حنَّف وتَحَنَّف إليه تَحنّفًا: مال إليه، فالحَنَفُ: الميل، والحَنيف: المائل.. فالرَّجُلُ أحنَفُ،

---

١. البحر المحيط ، الميزان : الآية .

٢. سورة البقرة : ١١١.

والرِّجْلُ حَنْفَاءُ، ومن ذلك: رجُلٌ أحنف وامرأةٌ حنفاء. ومفرده: حنيف وجمعه: حُنَفَاءُ..

وفي كيفيته أقوال كثيرة:

الحنف في القدمين: إقبال كلّ واحدة منهما على الأخرى بإبهامها، وكذلك هو في الحافر في اليد والرِّجل، وإن قيل: هو من كلّ حيوان في اليدين، ومن الإنسان في الرِّجلين، لكن جعله في يديه من قال:

وأنت لحنفاء اليدين لو أنَّها تنفق ما جاءت بزند ولا سهم

وقيل: هو ميل كلِّ واحدة من الإبهامين على صاحبتها حتى يرى شخصٌ أصلَها خارجاً، وقيل: هو انقلاب القدم حتى يصير بطنُها ظهرَها، أو أن يمشي على ظهور قدميه. أن تتدانى صدور قدميه ويتباعد عقباه. ميل في صدر القدم، أن يمشي على ظهر قدمه من شقّها الذي يلي خنصرها. وقيل: الحنف: الاعوجاج في الرجل، وهو أن تقبل إحدى إبهامي رجليه على الأخرى، أو اعوجاج في الرجل إلى داخل، إقبال القدم بأصابعها على القدم الأخرى. أن تقبل إبهام الرجل اليمنى على أختها من اليسرى، وأن تقبل الأخرى إليها إقبالاً شديداً...

وبه سمي الأحنف بن قيس، واسمه صخر، لحنف كان في رجله، وكانت حاضنته ترقصه وهو طفل:

والله لولا حنفٌ برجله ما كان في فتيانكم من مثله أو كمثله!

أو: **والله لولا حَنَفٌ برجله ودِقة في ساقه من هزله ما كان في فتيانكم من مثله**

والسيوف الحنفية تنسب إليه؛ لأنه أول من عملها، أي: أمر باتخاذها، وهو في القياس: سيف أحنفيٌّ، ويقال: تحنف فلان إلى الشيء تحنفاً إذا مال إليه.. ويُقال: هو

يَتَحنَّف أي يتحرّى أقومَ الطرق.

وهناك قول آخر أنَّ الحنيف: المستقيم، ومستقيم الطريقة، والحَنَف الاستقامة، وقد سمّي المستقيم بذلك؛ لأنه يتحنّف أي يتحرّى أقوم الطرق، وإنما قيل لمائل الرِّجل أو الأعرج: أحنف وحنيف؛ تفاؤلاً بالاستقامة والسلامة.. وأُنشد:

تعلَّم أن سيهديكم إلينا طريقٌ لا يجورُ بكم حنيفُ

وقد استدل من قال بأنَّ الحنيف في اللغة لا المستقيم، بل المائل، الذي يميل من شيء إلى آخر، فلا يستقر على شيء، فهو يتلون كالحِرباء؛ بقول ذي الرمة وهو يصف الحرباء:

يَظَلُّ بها الحرباءُ للشمس ماثلاً

على الجِذْلِ إلّا أنَّهُ لا يُكَبِّرُ

إذا حَوَّلَ الظِّلَّ العَشِيُّ رأيْتَهُ

حَنِيْفا وفي قَرْنِ الضُّحَى يَتَنَصَّرُ

أي إنّه إذا حول الظلُّ العشيّ، وذلك عند ميل الشمس إلى جهة المغرب، صار الحرباء متوجهاً للقبلة فهو حنيف، فإذا كان في أول النهار فهو متوجه للشرق؛ لأنَّ الشمس تكون في جهة المشرق، فيصير متنصّراً؛ لأنَّ النصارى تتوجه في صلاتها جهة المشرق. فالحِرباء تستقبل القبلة بالعشيّ، وتستقبل المشرق بالغداة، وهي قبلة النصارى...

وأمّا اصطلاحاً :

فكما ذكر علماء اللغة معنى الحنيف في اللغة، ذكروا ما يمكن أن يكون اصطلاحاً، فبما أنَّ حّنّف ّعن الشيء وتَحَنَّفَ: مال، وأنَّ الحَنَفَ هو الميل، وأنَّ الحنيف يطلق على الميل والمائل، وأنَّ الحَنَفَ ميل في صدر القدم.، ورجل أحنف أي مائل الرجلين، فقد

استفيد منه كمصطلح لوصف كلَّ ميل عن شيء إلى ضـدّه؛ فتحنّـف فـلان إلى الشـيء تحنّفاً إذا مال إليه، فالحنيف: المائل من خير إلى شرٍّ أو من شرٍّ إلى خير، ومَن مال مـن باطل إلى حقٍّ، أو من حقٍّ إلى باطل فهو حَنيف.

و للراغب قول فيه تمييز بين كلٍّ من الحَنَفِ والجَنَفِ: الحَنَفُ: هو ميل عن الضّلال إلى الاستقامة، والجنف: ميل عن الاستقامة إلى الضّلال، والحَنِيف هو المائل إلى ذلـك.. ويقول أيضاً: وتَحَنَّفَ فلان، أي: تحـرّى طريـق الاسـتقامة. وتبعـه في ذلـك آخـرون كالمُناوي.

الفراهيدي يذكر للحنيف قولين: ... والحنيف في قولٍ: المسلم الذي يستقبل قبلـة البيت الحرام على ملّة إبراهيم حنيفاً مسلماً. والقول الآخر: الحنيف كلّ من أسلم في أمر الله فلم يلتو في شيء منه. ثمَّ يذكر أنَّ أحبّ الأديان إلى الله الحنيفية السمحة وهي ملّـة النبيّ ﷺ لا ضيق فيها ولا حرج.

ابن قتيبة: الحنف: الاستقامة، وسمي الأحنف على سبيل التفاؤل، كما سمي اللديغ سليماً...

ابن فارس: ... والْحنيفُ: الْمَائِلُ إلى الدِّين الْمُسْتَقِيم، قَال اللهُ تَعَالَى ﴿**وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا**﴾،[1]

والأَصْلُ هَذَا، ثَمَّ يُتَّسعُ في تفسيره فيقال: الحنيفُ النَّاسِكُ، ويقال: هـو المختـون، ويقال: هو المستقيم الطَّريقة. ويقال: هو يتحنَّفُ، أي يَتَحَرَّى أقوم الطَّريق...

الجوهري: الحنيف المسلم وقد سمّي المستقيم بذلك كما سمّي الغراب أعور. وتحنف الرجل أي عمل عمل الحنيفية، ويقال اختتن، ويقال اعتزل الأصنام وتعبد؛ قال جـران

---

١. سورة آل عمران: ٦٧ .

العود:

ولما رأين الصبح ، بادرن ضوءه رسيم قطا البطحاء أو هن أقطفُ
وأدركن أعجازاً من الليل بعد ما أقام الصلاة العابدُ المتحنّفُ

ابن سيده: وحنف عن الشيء وتحنف، مال. والحنيف: المسلم الذي يتحنّف عن الأديان أي يميل إلى الحقِّ، وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت على ملة (إبراهيم)، وقيل: هو المخلص: وقيل: هو من أسلم في أمر الله فلم يلتو في شيء. وقول أبي ذؤيب:

أقامت به كمقام الحنيف شهري جمادى وشهري صفر

إنما أراد أنها أقامت بهذا المتربع إقامة المتحنّف على هيكله سروراً بعمله وتدينه لما يرجوه على ذلك من الثواب.. والدين الحنيف: الإسلام. والحنيفية، ملّة الإسلام. وفي الحديث: أحبّ الأديان إلى الله الحنيفية السَّمْحة. ويوصف به فيقال: ملّة حنيفيّة... وهناك من يذكر كالراغب أنَّ العرب سمّت كلّ من حجّ أو اختتن حنيفاً، تنبيها أنه على دين إبراهيم...

الشهرستاني: ... ثمَّ اعلم أنَّ الملّة الكبرى هي ملّة إبراهيم الخليل عليه السلام، وهي الحنيفية، التي تقابل الصبوة تقابل التضاد... قال تعالى: ﴿**مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ**﴾. الصبوة (أي الميل عن الحقِّ، وهي جهلة الفتوة).

أبو البقاء: الحنيف: كلّ موضع في القرآن ذكر الحنيف مع المسلم فهو الحاج ﴿**وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُسلماً**﴾، وفي كلّ موضع ذكر وحده فهو المسلم نَحْو: ﴿**لِلهِ حَنِيفاً**﴾، وكلّ من أسلم لله، ولم ينحرف عنه في شيْء فهو حنيف؛ و ﴿**مِلَّة إِبْرَاهِيم حَنِيفاً**﴾، أي: مخالفاً لليهود والنَّصارى منصرفاً عَنْهُمَا.

هذا وأنَّ ابن دريد ـ كما حكى عنه الشيخ الطوسي في تفسيره للآية ١٣٥ البقرة في اللغة ـ قال: قال ابن دريد: الحنيف العادل عن دين إلى دين، وبه سميت الحنيفية؛

لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية.

أقول: أولاً: لا أدري كيف ... وبه سميت الحنيفية؛ لأنها مالت عن اليهودية والنصرانية؟!

فلعلّه غاب عن ابن دريد أنَّ الحنيفيّة سبقت كلاً من الديانتين، وقد سميت بذلك قبلهما، وهي منهج نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وسمّي بها وانتسب إليها وانتسبت إليه... نعم، وكما قال ابن عباس: الحنيف المائل عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام.

ثانياً: بما أنَّ الدين ـ قرآنيًّا ـ واحد ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾.[1] والشرائع متعدّدة ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾.[2]

فلعلّ ابن عباس يقصد بالأديان في قوله: الحنيف المائل عن الأديان كلّها إلى دين الإسلام: الشرائع، وبدين الإسلام، الشريعة الخاتمة، فإنَّ من ردّد الشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ)، فقد مال عن الشرِّ كلِّه إلى الخير كلّه، ومن كلِّ شريعة إلى شريعة رسول الله صلى الله عليه وآله الخاتمة، ويوصف بأنه صار ﴿**حَنِيفاً مُّسْلِماً**﴾.

إذن يمكن إيجاز القول بأنَّ للحنيف عند أهل اللغة وتبعهم المفسرون قولين:

الأول: أن الحنيف هو المستقيم، أي أنَّ الحَنَف يعني الاستقامة؛ وسُمّيَ المِعْوَجَ الرِّجلين أحنف تفاؤلاً بالسلامة والاستقامة؛ فالعرب قد تصف الشيء بضده، إما على حقيقته أو استهزاءً، أو تفاؤلاً وهو الأنسب، فيقولون للديغ: سليم، وللمهلِكة: مفازة.. ونجد أنَّ هذه العلاقة التفاؤليّة تسري أيضاً لكلّ من أسلم لله ولم ينحرف عنه في شيء

---

١. سورة آل عمران : ١٩ .

٢. سورة المائدة : ٤٨ .

فهو حنيف، وسُمّيَ دين إبراهيم حنيفاً لاستقامته.

الثاني: أنَّ الحنيف هو المائل؛ لأن الأحنف هو الذي يميل كلّ واحد من قدميه إلى الأخرى بأصابعها، وتحنف إذا مال، وأن إبراهيم عليه السلام حنف إلى دين الله، أي مال إليه، فهو حنيف.

الطبري يذهب إلى المعنى الأول، وذلك بعد أن ذكر أقوال أهل التأويل من أنَّ الحنيف هو:

الحاجّ. وقيل: إنما سمّي دين إبراهيم الإسلام الحنيفية، لأنه أول إمام لزم العبادَ الذين كانوا في عصره والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة اتِّباعُه في مناسك الحجّ، والائتمام به فيه. قالوا: فكلّ من حجّ البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو حنيف مسلم على دين إبراهيم...

إنما سمي دين إبراهيم الحنيفية، لأنه أول إمام سنّ للعباد الختان، فاتبعه من بعده عليه. قالوا: فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام، فهو حنيف على ملة إبراهيم.

قال: الحنيف: المستقيم من كلّ شيء.. وقد قيل: إن الرجل الذي تُقْبل إحدى قدميه على الأخرى إنما قيل له أحنف نظراً له إلى السلامة، كما قيل للمهلكة من البلاد: المفازة، بمعنى الفوز بالنجاة منها والسلامة وكما قيل للّديغ: السليم، تفاؤلاً له بالسلامة من الهلاك، وما أشبه ذلك. فمعنى الكلام إذاً: قل يا محمد بل نتبع ملة إبراهيم مستقيماً. فيكون الحنيف حينئذ حالاً من إبراهيم.

ثمَّ أكّد قوله، وردَّ ما لا يتفق معه، فقال: الحنيف عندي هو الاستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملّته. وذلك أن الحنيفية لو كانت حجّ البيت؛ لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء، وقد نفى

الله أن يكون ذلك تحنفاً بقوله: ﴿**وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾.[1]

فكذلك القول في الختان؛ لأن الحنيفية لو كانت هي الختان، لوجب أن يكون اليهود حنفاء، وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً**﴾. فقد صحّ إذاً أنَّ الحنيفية ليست الختان وحده، ولاحجّ البيت وحده، ولكنه هو ما وصفنا من الاستقامة على ملة إبراهيم واتباعه عليها والائتمام به فيها.

وقد تبعه الشيخُ الطوسي في تبيانه فيما ذهب إليه من أنَّ الحنيفية هي الاستقامة

...

فيما الزمخشري وقف عند القول الثاني؛ وهو أنَّ الحنف: الميل في القدمين، ثم يذكر أنَّ الحنيف: المائل عن كلّ دين باطل إلى دين الحقّ. وتحنف إذا مال. وأنشد:

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا ❁ حَنِيفاً دِينُنَا عَنْ كُلّ دِينِ.

وهناك قول، لم أجده عند غير السيد العلامة الطباطبائي، وهو أنَّ الحنف: الميل من الطرفين إلى حاقّ الوسط وهو الاعتدال.[2]

ابن عاشور: والمراد الميل في المذهب أن الذي به حنف يميل في مشيه عن الطريق المعتاد. وإنما كان هذا مدحاً للملة؛ لأنَّ الناس يوم ظهور ملة إبراهيم كانوا في ضلالة عمياء، فجاء دين إبراهيم مائلاً عنهم، فلقب بالحنيف ثم صار الحنيف لقب مدح بالغلبة

...

هذا وبتطوره غدا مصطلحاً يقال على أي مائل لا فقط عن عبادة الأوثان إلى

---

١ سورة آل عمران : ٦٧ .

٢. تفسير الميزان: سورة النحل، الآية : ١٢٣ .

دين إبراهيم، بل على كلّ مائل عن اليهودية والنصرانية أيضاً إلى الشريعة الخاتمة، لما طرأ عليهما من تحريف وزيادة أدّت إلى الشرك بالله تعالى كما يأتينا، وهكذا كلّ من كان كذلك فهو حنيف، وحنيفيٌّ، حتى صار الحَنيفُ لقباً لمن تديَّن بالإسلام؛ قال عَمْرُو، وفي قول حمزة بن عبد المطلب؛ من الوافر:

حَمِدْتُ اللهَ حِينَ هَدَى فُؤَادِي ❁ إلى الإسْلاَمِ وَالدِّينِ الحَنِيفِ

وأيضاً من الوافر: **وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إذْ خُلِقْنَا ❁ حَنِيْفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِيْنِ**

إذن فالحنف هو الميل والمائل، وكما يقع في البدن، يقع في الدين، يقول د. شوقي ضيف: وأكبر الظنّ أنَّ كلمة حنيف معناها المائل عن دين آبائه كما يدلّ على ذلك اشتقاقها.

فيقال لمن مال عن الأديان الباطلة أو المكروهة والمعوّجة إلى الدين الحقِّ وصراطه المستقيم (الأحنف والحنيف).

وفي قول هو المستقيم وهو الاستقامة أو صار علَماً للاستقامة ..

وكلا القولين ينطبقان ـ اصطلاحاً ـ على نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، فلقد كان مائلاً عن الشرك وعن الدين الباطل إلى دين الله، لا بمعنى أنه كان متدينًا بدين باطل حتى حنف عنه إلى الدين الحقِّ، بل المقصود أنه حنف عمّا عليه قومه من دين باطل إلى الحقِّ، حنف عما يعبد أبوه وقومه من الآلهة إلى عبادة الله عزَّوجلَّ، أي عدل عن ذلك ومال؛ لذلك سمّي إبراهيم حنيفاً ودينه بالحنيفية.

وبقي مستقيماً على توحيد الله وتسليمه له، ثابتاً عليه متمسّكاً به لا بغيره، ألا ترى أنه تعالى ما إن أثبت له الإسلام بالحنيفية ﴿**حَنِيفاً مُّسْلِماً**﴾ حتى نفى عنه غيره بقوله: ﴿**وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، وأيضاً ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً**﴾، ردًّا على دعواهم أنه كان منهم؟!

فبنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام؛ تعزّزت الدعوة إلى عبادة الله تعالى، وترسّخت فكرة الإله

الواحد، ونبذ عبادة الأصنام والأوثان وغيرها، وإن سبقه أنبياء يحملون هكذا دعوة كنوح وهود وصالح، لكنها في عهده عليه السلام أخذت تتجذّر وتتسع، وتتضح معالمها ومفاهيمها وأحكامها تحت إطارٍ جديد (الحنيفية) التي صارت من أعظم مظاهر التوحيد...

وعن الوجه في إطلاق الحنيفية على إبراهيم وملّته دون غيره من الأنبياء السابقين، يقول السيد السبزواري:

إنَّ إبراهيم كان في قوم مشركين، عبدة الأوثان، وقد جاهد عليه السلام في دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الأوثان وعبادتها، وابتلى من قومه بما ابتلى حتى اختاره الله تعالى لأقصى درجات الخلّة والإمامة، ومنحه الملّة، التي كانت بمنزلة المادة لجميع الأديان الإلهية ـ اليهودية والنصرانية والإسلام ـ مع أنه عليه السلام يعتبر مؤسس حركة التوحيد في العالم، وبه ابتدأت الشرائع الإلهية. وأما شرائع من قبله من الأنبياء، فلم تكن لها تلك الأهمية التي جعلها الله لملّة إبراهيم، ولذلك كانت ملّته الحنيفية الجامعة للمعارف الإلهية والكاملة في التوحيد ونفي الشرك والارتقاء في معارج الكمال، وقد أنزلها تبارك وتعالى حسب المصالح ومقتضيات الظروف حتى انتهى الأمر إلى الإسلام الدين الجامع لجميع الكمالات، والمشتمل على أقصى المعارف الإلهية. ومن ذلك يعرف أنَّ اختلاف المفسرين في معنى الحنيف، وبيان المأخذ، لا وجه له، بل هو اختلاف مصداقي، والجامع هو الصحة والتمامية والسهولة وعدم الضيق والحرج...

وأقول: لا يعني هذا إلغاءً أو تبسيطاً لدور الأنبياء والرسل من قبل إبراهيم عليه السلام، فقد كانت رسائلهم تحارب الشرك وتدعو إلى نبذه وترك مظاهره، وتدعو إلى التوحيد الخالص ومعالمه، وهما ركنا الحنيفية، وقد جاءت آيات عديدة تبيّن دورهم ووظيفتهم، منها قوله تعالى في:

نبيّه نوح عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾،[1]

نبيّه هود عليه السلام:

﴿وَإِلىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾،[2]

نبيّه صالح عليه السلام:

﴿وَإِلىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَاقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾،[3]

ولكنَّ نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام، ولحكمته تعالى، تجلّى مشروعُه التوحيديُّ منظومةً متكاملةً، وشريعةً واسعةً، ومناسكَ وأحكاماً، ومعالمَ ومفاهيمَ وأخلاقاً، وشاءت إراداتُه تعالى أن تبقى ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، منهاجاً لمن يأتي بعده من أنبياء ورسل وصالحين؛ حتى عُدَّ إبراهيمُ المؤسس لمشروع التوحيد الخالص، والدين الخالص، ومنه وإليه انتهت الشرائع السماويّة، فمن كان على دينه وملّته ومنهجه فهو الملتزم بالحنيفيّة وهو الحنيف؛ لعدوله عن الشرك إلى التوحيد، ولأنه يتحنّف أي يميل إلى الحقّ. فالحنيف هو المائل إلى الإسلام على الحقيقة؛ حتى قيل لإبراهيم عليه السلام ولرسول الله صلى الله عليه وآله ولمن تبعهما من الناس: ﴿حَنِيفاً مُّسْلِماً﴾، ﴿حُنَفَآءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾،[4]

---

١. سورة المؤمنون : ٢٣ .

٢. سورة الأعراف : ٦٥ .

٣. سورة الأعراف : ٧٣ .

٤. سورة الحج : ٣١ .

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾.[1]

إشارة أخيرة :

إنَّ مما يدلُّ على أهمية مفردة (الحنيف) لغةً واصطلاحاً، وعلى قدسيتها في كونها مشروعاً دينيًّا كبيراً، هو أنه احتلّ في تاريخه مكانةً واسعةً في اللغات والديانات والحياة الاجتماعية، حتى أنهم قالوا عنه الكثير، وذكروا له مصاديق عديدة، وحتى قيل عن كلمة الحنيف: إنها غير عربية، هي معربة عن أصل عبراني أو آرامي أو...

وكما كانوا يدعون الراهب بأسماء عديدة كالمقدس والمتعبّد.. ويطلقون على الرهبان: الحبساء، والحبيس أي المحبوس في سبيل الله، والراهب هو حبيس الله؛ كذلك كانوا يدعون الرهبان بالحنفاء، ولعلّ الحنيف عندهم كما يقولون: جاءت بمعنى الراهب بشهادة قول صخر: **كأنَّ توالِيَهُ بالملا ـ نصارى يساقون لاقوا حنيفا**

وقول أيمن بن خريم في وصف الخمرة:

وصهباءُ جرجانيّةٌ لم يطف بها حنيفٌ ولم تنغر بها ساعةً قِدرُ

وقول جرير: **وحالفتَهُم للومِ يا آلَ درهمٍ خلافُ النصارى دينُ من يتحنّفُ**

وإنها تطلق على الصابئة.. وتطلق على من له صلة وثيقة بالزهد والزهادة.. وأنه مصطلح كان معروفاً في بلاد الشام قبل الإسلام يشير إلى الانحراف الوثني.. إلى غير ذلك من الأقوال، ومما تركه هذا المنهج في حياة الناس على اختلاف دياناتهم

---

١. سورة البينة : ٥ .

وتوجهاتهم منذ ظهوره على يدي نبيِّ الله إبراهيم الخليل عليه السلام.[١]

وقرآنيًّا

بعد أن استعرضنا أقوال كبار علماء اللغة والتفسير في معنى الحنيف لغةً واصطلاحاً، نأتي إليه قرآنيًّا، فقد جاءت مفردة (حنيفاً وحنفاء) اثنتي عشرة مرّةً، عشر مرات بصيغة المفرد (حَنِيفاً) وقد قرنت ثمانية مواضع منها بنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وبعضها كانت خطاباً لرسول الله محمد صلى الله عليه وآله، فيما جاءت (حُنَفَآءَ) بصيغة الجمع مرتين، وجميعها وردت في اثنتي عشرة آية في تسع سور من التنزيل العزيز مكيّة ومدنيّة، وتضمنت آياتها مفردات جليلة اقترنت وأحاطت بها، منها: (صِرَاطٍ، مُّسْتَقِيمٍ دِيناً، قِيَماً، مِّلَّةَ، مسلماً، فطرة، أحسن، أسلم... إضافةً إلى الهداية والإيمان ونفي الشرك...).

أما الآيات فهي:

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٢]

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ

---

١. انظر معاجم اللغة وكتب التفسير، منها لسان العرب، لابن منظور؛ ومقاييس اللغة، لابن فارس؛ كتاب العين، للفراهيدي ٣؛ المحكم لابن سيده ٣ : ٢٩٠-٢٩١ ؛ الملل والنحل، للشهرستاني : ٥١ ؛ شمس العلوم، للحميري؛ الكليات، لأبي البقاء؛ وغريب القرآن، والشعر والشعراء، لابن قتيبة؛ والأغاني : ١٦ : ٤٤ ؛ والمفصل، د . جواد علي؛ والسطلي: ديوان أمية: ١٨؛ والمفردات، للراغب: حنف ؛ وتفسير الطبري؛ والكشاف، للزمخشري؛ ومجمع البيان، للطبرسي؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور؛ ومواهب الرحمن في تفسير القرآن، للسيد السبزواري: الآية ١٣٥ البقرة؛ وغير ذلك من المصادر.

٢. سورةالبقرة : ١٣٥ .

ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[١]

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٢]

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَٱتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾.[٣]

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٤]

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٥]

﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٦]

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.[٧] ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٨]

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٩] ﴿حُنَفَآءَ للهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي

---

١. سورة آل عمران : ٦٧ .
٢ سورة آل عمران : ٩٥ .
٣. سورة النساء : ١٢٥ .
٤. سورة الأنعام : ١٦١ .
٥. سورة الأنعام :٧٩ .
٦. سورة يونس : ١٠٥ .
٧. سورة الروم : ٣٠ .
٨. سورة النحل : ١٢٠ .
٩. سورة النحل : ١٢٣ .

﴿مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.[١]

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ ٱللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَـاةَ وَذَلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.[٢]

مع هذه الآيات:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٣]

كما قرأنا في اللغة أنَّ ﴿حَنِيفاً﴾ تعني الميل والمائل، وتعني الاستقامة والثبات..، فإنَّ إبراهيم عليه السلام أول من حملها ووصف بها مع مناقب أُخرى جليلة كما في الآيات المذكورة وغيرها، وقع له ذلك بعد أن نشأ ورأى قومه طوائف متعدّدة في العبادة:

طائفة تعبد الكواكب والنجوم والقمر والشمس..، وأخرى تعبد تماثيل وأصناماً خشبية وحجرية..، وثالثة تعبد ملوكها وحكامها..، وكلّها تدخل دائرة عبادة الشيطان، كما جاء في قوله لأبيه:

﴿يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَـنِ عَصِيّاً﴾.[٤]

وبعد أن وقف منها مواقف حواريّة جريئة، تحدّث عنها التنزيل العزيز، وهي إجمالاً تمثّلت مرّةً في محاججته للنمرود؛ ذاك الذي أول من تجبّر في الأرض وادّعى الربوبية، وأمر الناس بعبادته، وأنه يُحيي الموتى..، وقد انتهت المحاججة أن اندهش

---

١. سورة الحج : ٣١ .

٢. سورة البينة : ٥ .

٣. سورة الأنعام :٧٩ .

٤. سورة مريم : ٤٤ .

النمرود أو تحيّر في الجواب وانهزم حين لا حجّة لديه ولا برهاناً، ومن أين يأتيه البرهان ﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾؟!

في قول: لا يلهمهم حجّةً ولا برهاناً، بل حجّتهم داحضة عند ربّهم..، أو لايهديهم بألطافه وتأييده.. أو لا يهديهم إلى المحاجّة كما يهدي أنبياءه وأولياءه..

نجد هذا في الآية التالية وهي خطاب لرسول الله ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.[1]

وأخرى مع الطائفة التي عبدت الأصنام و... ومنهم أبوه آزر.. فكان خطابه معهم أن سمّى معبوداتهم تماثيل لا آلهةً كما يزعمون..

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُواْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ...﴾.[2]

وأيضاً :

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾.[3]

لم يهتدِ أحدٌ منهم لدعوته عليه السلام في نبذ عبادة الأصنام، عبدوها وراثةً وتقليداً لآبائهم من قبل.

وأخيراً ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ ٱلأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي

---

١. سورة البقرة : ٢٥٨ .

٢. سورة الأنبياء ٥٢ ـ ٥٤ .

٣. سورة الأنبياء ٦٧ ـ ٦٨ .

إِلاَّ رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ * ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . . . ﴾.[١]

وثالثة مع عبدة الكواكب... ولعلّه ـ والله أعلم ـ كان منه عليه السلام ذلك؛ حين حضر تجمعاً لهم ليلاً وآخر نهاراً، وهم ينظرون إليه متأملاً ما في السماء من حوله، يعرف أنَّ طائفةً كبيرةً منهم تعبد كواكب السماء والقمر والشمس!

﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ ٱلآفِلِينَ * فَلَمَّآ رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ * فَلَماَّ رَأَى ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ...**﴾. ليُنهي حواره، الذي تقصّد به أن يُقدم لقومه حججاً دامغة، فالربّ الحقُّ؛ لا أُفول له، وهو دليل حدوثها، وكلُّ هذه مخلوقة له، تحتاج إلى من يحركها.. لا تضرُّ ولا تنفع..، بالتالي فهي ليست جديرةً أن تكون ربًا يُعبد وإلاهاً يُطاع..؛ فلعلّ حججه هذه؛ توقظ عقولهم، وتُعيد لها الرشد، الذي غيّبته أهواؤهم وجهالتهم وزعماؤهم..، لكنهم لم يغادروا موقع الكفر والشرك؛ التي ألفتها نفوسهم، مما جعله يختم حواره معهم حين ﴿**... قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ...**﴾.

إنها براءة من الشرك، وميلٌ عن الضلال، يُعلنها على مسمع منهم ومرأى.. ليقف شاخصاً ببصره نحو الحقِّ تعالى، فهو الذي خصّه بالانقياد والخضوع له، وقصده بالعبادة، فقد أخلصتُ له ديني وأفردتُه بالولاء. منادياً بل صارخاً بأعلى صوته وهم يسمعون ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾.

﴿**حَنِيفاً**﴾: عدولاً عن كلّ معبود دون الله، وميلاً من أي شرك إلى توحيده تعالى، وثباتاً على الإيمان به، فلا انحراف إلى شرك، ولا توجّه إلى ضلال، وبالتالي فهي كلمة

---

١. سورة الشعراء : ٧٠ ـ ٨٩ .

فاصلة ويقين جازم، فلا تردد بعدُ ولا حيرة، فيما تجلّى للعقل وتطابق مع الحقيقة، لما حاج إبراهيم قومه ببيان بطلان عبادة الأصنام وربوبية الكواكب، وإثبات وحدانية الله تعالى ووجوب عبادته وحده دون غيره؛ وهي الحنيفية.

ولعلَّ ـ والله أعلم ـ من هنا، أي بعد هذه المحاججات المتعددة، بدأ تاريخ هذه الكلمة ﴿حَنِيفاً﴾ وبها بدأ المشروع الإبراهيمي (الحنيفية).

الطبري: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام، أنه لما تبين له الحقّ وعرفه، شهد شهادة الحقّ، وأظهر خلاف قومه أهل الباطل وأهل الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قيل الحقّ والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: يا قوم إني بريء مما تشركون مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السموات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى ويحيي ويميت، لا إلى الذي يفنَى ولا يبقَى ويزول ولا يدوم ولا يضرّ ولا ينفع. ثم أخبرهم تعالى ذكره أن توجيهه وجهه لعبادته بإخلاص العبادة له والاستقامة في ذلك لربه على ما يجب من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجه له وجهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه لا على التحنيف غير نافع موجهه بل ضارّه ومهلكه.

﴿وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: ولست منكم أي لست ممن يدين دينكم ويتبع ملتكم أيها المشركون، وبنحو الذي قلنا في ذلك كان ابن زيد يقول: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قول قوم إبراهيم لإبراهيم: تركت عبادة هذه؟ فقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ﴾، فقالوا: ما جئت بشيء ونحن نعبده ونتوجهه، فقال: لا ﴿حَنِيفاً﴾ قال: مخلصاً، لا أشركه كما تشركون.

الطبراني: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾، بالله من الأصنام والأوثان والشّمس

والقمر والكواكب. قالوا: فمن تعبد أنت يا إبراهيم؟

قال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ**﴾؛ أي إني أخلصتُ ديني وعبادتي، وجعلت قصدي للَّذي ابتدأ خلق السَّماوات والأرض، ﴿**حَنِيفاً**﴾؛ أي مائلاً من الأديان الباطلة إلى دين الحق ميلاً لا رجوع فيه، ﴿**وَ مَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ**﴾؛ أي لست على دينكم أيها المشركون ..

العلامة الطباطبائي: تبرّأ من ربوبيتها وشرك قومه، فقال: ﴿**قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾، ثم أثبت الربوبية لله سبحانه كما كان يثبت الألوهية بمعنى إيجاد السماوات والأرض وفطرها له تعالى فقال: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ**﴾، وهو العبودية قبال الربوبية ﴿**لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ**﴾، غير منحرف من حاق الوسط إلى يمين أو يسار ﴿**وَ مَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ**﴾؛ بإشراك شيء من خلقه ومفطوراته له تعالى في العبادة والإسلام...[1]

وهكذا يتوالى الوصف القرآني لنبيّ الله إبراهيم ودينه، الذي راح يترك آثاره وثماره في الأرض، فجاءت بعد قرون كثيرة آيات قرآنيّة أُخر، ومنها هذه الآية تمتدح من تمسّك بالحنيفية واتبع منهجها:

﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾.[2]

﴿**واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾. ﴿**حَنِيفاً**﴾، لا أحد هناك أفضل ملّةً من حنيفٍ مائلٍ

---

١. انظر مجمع البيان، للطبرسي؛ تفسير القرآن العظيم، ابن كثير؛ تفسير المنار، محمد رشيد رضا؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري؛ التفسير الكبير، الطبراني؛ تفسير الميزان: الآيات .

٢. سورة النساء : ١٢٥ .

عن الشرك عن قصد، تاركٍ للضلال عن بصيرة، مقبلٍ على التوحيد بوعي وعقلٍ، مستقيمٍ على الهدى ثابتٍ عليه، لا يصدّه عن مواقفه هذه صادٌّ، ولا يردّه عنها رادٌّ..! حتى جعله التنزيل العزيز واحداً ممن أدخلهم في تلك الصورة الرائعة؛ صورة الاستفهام المراد به التقرير ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً**﴾، ومعناه من أصوب طريقاً، وأهدى سبيلاً؛ و أحسن اعتقاداً.

﴿**مِمَّنْ**﴾: **أولاً**: ﴿**أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله**﴾، أي استسلم وجهه ؛ أي ذاته ونفسه لله سبحانه، وانقاد إليه بالطاعة، وقَصَده بالعبادة وحده دون سواه.. وإنما خصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه أشرف الأعضاء، فإذا انقاد الوجه لله وخضع له فقد انقاد لله جميع الأعضاء ؛ لأنها تابعة له!

الطبري: وهذا قضاء من الله جلّ ثناؤه للإسلام وأهله بالفضل على سائر الملل غيره وأهلها، يقول الله: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً**﴾، أيها الناس، وأصوب طريقاً وأهدى سبيلاً؛ ﴿**مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله**﴾، ممن استسلم وجهه لله، فانقاد له بالطاعة، مصدّقاً نبيَّه محمداً ﷺ فيما جاء به من عند ربّه.

ابن عاشور: وإسلام الوجه كناية عن تمام الطاعة والاعتراف بالعبودية، وهو أحسن الكنايات؛ لأنّ الوجه أشرف الأعضاء، وفيه ما كان به الإنسان إنساناً، وفي القرآن: ﴿**... فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ...**﴾.[1] وأراد بإسلام الوجه الاعتراف بوجود الله ووحدانيته..

و **ثانياً**: ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾، الطبري: وهو عامل بما أمره به ربُّه، محرّم حرامه، ومحلل حلاله.

---

١. سورة آل عمران : ٢٠ .

ابن عاشور: أي فاعل للفعل الحسن الذي أمره الله تعالى.. أو محسن في جميع أقواله وأفعاله.. أو الموحِّد. وروي أن النبيﷺ سئل عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله تعالى كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»، وأيضاً قال: ﴿**وَهُوَ مُحْسِنٌ**﴾ حال؛ قصد منها اتّصافه بالإحسان حين إسلامه وجهَه لله، أي خلع الشرك قاصداً الإحسان، أي راغباً في الإسلام لِمَا رأى فيه من الدعوة إلى الإحسان.

و ثالثاً: ﴿**واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾، ﴿**حَنِيفاً**﴾ يجوز أن يكون حالاً لإبراهيم، ويجوز أن يكون حالاً للمتبع كما تقول رأيته راكباً.. ، وإنه اتّبع شريعة الإسلام التي هي على أُسس ملّة إبراهيم.

وعن هذه الثلاثة يقول ابن عاشور: فهذه ثلاثة أوصاف بها يكمل معنى الدخول في الإسلام، ولعلّها هي الإيمان، والإحسان، والإسلام.

الطبري: ﴿**واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾، يعني بذلك: واتبع الدين الذي كان عليه إبراهيم خليل الرحمن، وأمر به نبيَّه من بعده وأوصاهم به؛ حنيفاً، يعني: مستقيماً على منهاجه وسبيله..

عن الضحاك، قال: فضل الله الإسلام على كلّ دين، فقال: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ...**﴾ إلى قوله: ﴿**وَٱتَّخَذَ ٱللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾، وليس يقبل فيه عمل غير الإسلام، وهي الحنيفية.

الشيخ الطبرسي: ﴿**واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾، أي اقتدى بدينه وسيرته وطريقته؛ يعني ما كان عليه إبراهيم وأمر به بَنيه من بعده، وأوصاهم به من الإقرار بتوحيده وعدله، وتنزيهه عمَّا لا يليق به؛ ومن ذلك الصلاة إلى الكعبة والطواف حولها وسائر المناسك ﴿**حَنِيفاً**﴾ يجوز أن يكون حالاً لإبراهيم، ويجوز أن يكون حالاً للمتبع

كما تقول رأيته راكباً. ﴿حَنِيفاً﴾ أي مستقيماً على منهاجه وطريقه...[1]

آيات تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله:

هناك آيتان تتعلقان برسول الله صلى الله عليه وآله لم يُذكر فيهما إبراهيم عليه السلام، بل ذُكر منهجه ومشروعه أي الحنيفيّة، وقد جاء الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وآله في كلٍّ واحدة منهما بصيغة ﴿وَأَنْ أَقِمْ﴾ ، ﴿فَأَقِمْ﴾:

الأولى : ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[2]

وقد جاءت خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وآله بل أمراً صريحاً جليًّا بالفعل ﴿أَقِمْ﴾ ليكون الأقوى والأعمق تأثيراً في نفسه.. وإقامة الشيء: توفيته حقَّه، أداؤه على الوجه الأكمل الذي يؤدي غايته، ويستوفي مقوماته وشروطه، استقم للدين ولاتحد عنه، اصرف ذاتك كلّها للدّين الحنيف؛ لا أيّ دين..

﴿حَنِيفاً﴾ هي حال من الدين أو من الوجه، أو حال من الضمير في أقم، أي مائلاً إليه ثابتاً عليه مستقيماً فيه لا يرجع عنه إلى غيره.. أن تتوّجه لدينك الذي أنت عليه وهو الإسلام، أن توقف نفسك عليه، خالصاً له..

وزيادةً في تأكيد ذلك، جاء النهي في الجزء الأخير من الآية: ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فهي كما هو الحال مع إبراهيم في الآيات السبع ما إن تأتي ﴿حَنِيفاً﴾ إلاّ ويتبعها ذيل الآية يُبرئه من الشرك وينفيه عنه ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أو ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، مما يدلّ على أنَّ هناك تضادًّا حقيقياً بين ﴿حَنِيفاً﴾ وبين الشرك، تنافياً بينهما فلا يجتمعان.. فجاء الأمر، وجاء تأكيده بالنهي عن ضدِّه، وعمّا يُنافيه أيضاً!

---

١. انظر جامع البيان في تفسير القرآن ؛ مجمع البيان ؛ والتحرير والتنوير: الآية .

٢. سورة يونس : ١٠٥ .

الطبري: أقم نفسك على دين الإسلام حنيفاً مستقيماً عليه، غير معوجّ عنه إلى يهودية ولا نصرانية ولا عبادة وثن. ﴿**وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾، ولا تكوننّ ممن يشرك في عبادة ربّه الآلهة والأنداد فتكون من الهالكين !

هذا وإذا فسرت ﴿**حَنِيفاً**﴾ بالاستقامة، فقد أُمر النبيﷺ صراحةً بالاستقامة على أمر الله تعالى، وهو يدعو إليه، وأن ينأى بنفسه وبمن معه عما حوله من مناهج مضطربة، وأهواء متّبعة، فهو أمر بالدوام على النهج البيّن واليقين الثابت، وقد جاء مرّةً في آية ١٥ من المقطع القرآني من سورة الشورى:

﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَٱلَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسىٰ وَعِيسىٰ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ * وَمَا تَفَرَّقُواْ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ * فَلِذَلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ**﴾.[١]

وقد جاء هذا الأمر بالاستقامة، بعد أن زاغت أمم سبقته عن أمر الله تعالى، ولم تستقم على دينه، فتشتت وتفرقت، فاستحقّت الهلاك.

﴿**فَلِذَلِكَ فَٱدْعُ**﴾: في اللامِ وجهان، أحدهما: أن تكون بمعنى إلى. والثاني: أنها للعلةِ أي: لأجل التفرُّق والاختلاف، ادع للدِّين القيِّم.

فالطبري يذهب للأول حيث يقول: فإلى ذلك الدين الذي شَرَع لكم، ووصّى به نوحاً، وأوحاه إليك يا محمد، فادع عباد الله، واستقم على العمل به، ولا تَزغ عنه،

---

١. سورة الشورى ١٣ ـ ١٥ .

واثبتْ عليه كما أمرك ربك بالاستقامة.

فيما الزمخشري يذهب للثاني، فيقول: لأجل التفرق ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ إلى الاتفاق والائتلاف على الملّة الحنيفية القديمة ﴿وَٱسْتَقِمْ﴾ عليها وعلى الدعوة إليها كما أمرك الله ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ المختلفة الباطنة بما أنزل الله من كتاب، أيّ كتاب صحّ أنّ الله أنزله، يعني الإيمان بجميع الكتب المنزلة؛ لأنّ المتفرقين آمنوا ببعض وكفروا ببعض، كقوله تعالى: ﴿...وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ... * أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَافِرُونَ حَقّاً ...﴾.[1]

ومثله الرازي، وأما الطبرسي فقد ذكر قولين: وذلك إشارة إلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد ومعناه فإلى الدين الذي شرعه الله تعالى ووصّى به أنبياءه فادع الخلق يا محمد. وقيل: إنَّ اللاّم للتعليل أي فلأجل الشك الذي هم فيه فادعهم إلى الحقّ حتى تزيل شكّهم. ﴿وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي فاثبت على أمر الله وتمسّك به واعمل بموجبه. وقيل: واستقم على تبليغ الرسالة ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، يعني أهواء المشركين في ترك التبليغ. أبوحيان: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾، أن يكون إشارة إلى إقامة الدين، أي فادع لدين الله وإقامته، لا تحتاج إلى تقدير اللام بمعنى لأجل، لأن دعا يتعدى باللام، قال الشاعر:

دعوت لما نابني مسوراً فلبى فلبى يدي مسورا

واحتمل أن تكون اللام للعلة، أي فلأجل ذلك التفرق. ولما حدث بسببه من تشعب الكفر شعباً، ﴿فادع﴾، إلى الاتفاق والائتلاف على الملة الحنيفية، ﴿واستقم﴾: أي دم على الاستقامة...

وأُخرى في الآية ١١٢ من سورة هود، فقد أمره بالاستقامة ومن تاب معه:

---

١. سورة النساء : ١٥٠ ـ ١٥١ .

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

الطبرسي: والاستقامة هو أداء المأمور به، والانتهاء عن المنهي عنه كما أمرت في القرآن ﴿وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾، أي وليستقم من تاب معك من الشرك كما أمروا عن ابن عباس. وقيل: معناه ومن رجع إلى الله وإلى نبيه فليستقم أيضاً أي فليستقم المؤمنون. وقيل: استقم أنت على الأداء وليستقيموا على القبول ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تجاوزوا أمر الله بالزيادة والنقصان فتخرجوا عن حدّ الاستقامة. وقيل: معناه ولا تطغيكم النعمة فتخرجوا عن حدّ الاستقامة ..[1]

فكم عظيمة هي الاستقامة، ففيها العدل والاعتدال، والدعوة على بصيرة، والسير الواعي على الطريق السليم، فلا انحراف ولا ميل ولا زيغ عنه، ولا تجاوز ولا طغيان! ومن هذا يتضح أنَّ الدعوة للحنيفية والأمر بإقامتها والاستقامة عليها هي دعوة للدين الحقِّ، ونبذ ماعداه، وهي دعوة لتوحيد الصفِّ المؤمن على ملّة واحدة؛ حنيفية إبراهيم عليه السلام، فهي صراط لا اعوجاج فيه ولا التواء، وهي جامعة للخير كلّه؛ مانعة عن الشرك والتفرّق والضلال..!

الثانية : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾.[2]

بعيداً عن أولئك الظالمين، الذين اتبعوا أهواءهم، فاضطربت نفوسهم، وتقلّبت

---

١. تفسير الدر المصون، السمين الحلبي؛ الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري؛ تفسير الكشاف، الزمخشري؛ التفسير الكبير، الرازي؛ مجمع البيان، الطبرسي؛ البحر المحيط، أبوحيان؛ وانظر التحرير والتنوير، لابن عاشور فله كلام مفصل: الآيات .

٢. سورة الروم : ٣٠ .

توجهاتهم؛ جاء هذا الخطاب لرسول الله ﷺ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً..﴾، وإن كان الخطاب في بداية الآية موجهاً إليه ﷺ إلاّ أنَّ المقصود به جميع المؤمنين، ولعلَّ ذلك بدلالة الآية بعدها ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[1]

فالخطاب لم يكن مخصوصاً به، كما ذهب إلى ذلك الشيخ الطبرسي حيث قال: ... ثمَّ خاطب سبحانه نبيّه ﷺ والمراد جميع المكلفين.

و أبوحيان بقوله: المراد به: فأقيموا وجوهكم، وليس مخصوصاً بالرسول وحده، وكأنه خطاب لمفرد أريد به الجمع، أي: فأقم أيها المخاطب، ثم جمع على المعنى، لأنه لا يراد به مخاطب واحد. فإذا كان هذا، فقوله: ﴿مُنِيبِينَ﴾، ﴿وَأَقِيمُواْ﴾، ﴿وَلاَ تَكُونُوا﴾ ملحوظ فيه معنى الجمع...

ويواصل كلامه قائلاً: فقوم وجهك له وعدله غير ملتفت، وهو تمثيل لإقباله على الدين واستقامته عليه وثباته واهتمامه بأسبابه. فإن من اهتم بالشيء، عقد عليه طرفه وقوم له وجهه مقبلاً به عليه، والدين دين الإسلام. وذكر الوجه، لأنه جامع حواس الإنسان وأشرفه. و ﴿حَنِيفاً﴾: حال من الضمير في أقم، أو من الوجه، أو من الدين، ومعناه: مائلاً عن الأديان المحرفة المنسوخة.

الطبري: فسدّد وجهك نحو الوجه الذي وجهك إليه ربّك يا محمد لطاعته، وهي الدين، ﴿حَنِيفاً﴾: مستقيماً لدينه وطاعته.

الزمخشري: فقوِّم وجهك له وعدِّ له، غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً، وهو تمثيل لإقباله على الدين، واستقامته عليه، وثباته، واهتمامه بأسبابه، فإنّ من اهتم بالشيء

---

١. سورة الروم : ٣١ .

عقد عليه طرفه، وسدّد إليه نظره، وقوّم له وجهه، مقبلاً به عليه.[١] أي اتّجه إلى الدين الحقِّ، مستقيماً عليه دون سواه، حنيفاً: مائلاً عن كلِّ ما عداه، فهو عقيدة واحدة ثابتة، لا تتفرق معها السبل كما تفرق المشركون شيعاً وأحزاباً مع الأهواء والنزوات.. فهو: ﴿فِطْرَتَ ٱللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾. وهو: ﴿ذَلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ...﴾.

الطبري: صنعة الله التي خلق الناس عليها، ونصبت فطرة على المصدر من معنى قوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ للدّينِ حَنِيفاً﴾. أن معنى ذلك: فطر الله الناس على ذلك فطرة..

﴿ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ﴾، يقول تعالى ذكره: إن إقامتك وجهك للدين حنيفاً غير مغير ولا مبدّل هو الدين القيم،يعني المستقيم الذي لا عوج فيه عن الاستقامة من الحنيفية إلى اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من الضلالات والبدع المحدثة...

ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الدين الذي أمرتك يا محمد به بقولي ﴿فَأَقِمِ وَجْهَكَ للدّينِ حَنِيفاً﴾، هو الدين الحقّ دون سائر الأديان غيره!

الآية الثالثة : ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[٢]

وقد تصدّرت هذا الآية المباركة ثلاث آيات؛ كلّ آية منها تبدأ بفعل الأمر﴿قُلْ﴾: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ

---

١. مجمع البيان؛ تفسير البحر المحيط، أبوحيان؛ تفسير الطبري؛ الكشاف، للزمخشري: الآية ٣٠-٣١ الروم .

٢. سورة الأنعام : ١٦١ .

ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغَيْرَ ٱللهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾.[1]

فبعد أن بيّن سبحانه أنَّ الكفار تفرقوا فرقاً، وتحزبوا أحزاباً، جاء هذا المقطع القرآني المبارك؛ لتتجلّى فيه هداية الله تعالى لحبيبه المصطفى، وإرشاده له، فيعلنها رسول الله ﷺ بلسانه الشريف؛ بعد أن أمرته السماء، في مشهدٍ مفعمٍ بالشكر العظيم، والطمأنينة الكاملة النابعة من قلب صادق متعلقٍ بربِّه، ونفس أمينة مطمئنة لربِّها، ذائبة في حبِّها وولائها له، مسرورةً بذلك؛ وهي تستحضر ﴿.. **مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً** ..﴾، فينطق ﷺ ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾.[2]

مخاطباً أولئك المعرضين عن الله تعالى، المتخذين دونه ﴿**أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ**﴾.[3] فيرسم ﷺ صورةً رائعة لعلاقته بمشروع جدّه إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي أنعم الله عزَّوجلَّ به عليه، لا اعوجاج فيه ولا انحراف... كما أنَّ في وقفته هذه إقراراً منه ﷺ وتوكيداً لهداية الله تعالى له للمشروع الإبراهيمي المبارك، ولنعمه عليه؛ وأنه ﷺ أعلن ذلك إيماناً وعبادةً، حياةً ومماتاً؛ فهو لله وحده؛ ليحسم به جدلاً، صار طويلاً وشاقًّا وعقيماً بينه وبين مشركي مكّة عبدة الأوثان.. فتجلّى توحيده لله وعبوديته الخالصة له سبحانه قولاً وعملاً.. كما أنه ﷺ بقوله هذا راح يذكّرهم بأنَّ الدين الذي هو عليه ليس بدعاً، بل هو ﴿**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾، مائلاً عن جميع ما سواه من الشرك والباطل والعوج والضلال؛ مستقيماً عليه، والذي يُعظّمه أهلُ الشرائع والديانات، ويزعم مشركو قريش

---

١. سورة الأنعام ١٦١ ـ ١٦٤ .

٢. سورة النجم ٣ ـ ٤ .

٣. سورة البقرة : ١٦٥ .

وكفّارها، لا فقط الانتساب إليه، بل أنّهم على حنيفيته! وإذا بالردِّ يأتيهم أيضاً ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾، تنزيهاً له عمّا هم عليه من الشرك والضلال، حاسماً لمزاعمهم، تكذيباً لدعواهم من أنّهم على ملّته؛ فإنَّ الحنيفية تنافي الشرك، الذي هم عليه؛ ولذلك وصل وصفه بالحنيف بنفي الشرك عنه!

الطبري: يقول تعالى ذكره لنبيه محمدﷺ: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد لهؤلاء العادلين بربِّهم الأوثان والأصنام: ﴿**إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾.

إنني أرشدني ربّي إلى الطريق القويم، هو دين الله الذي ابتعثه به، وذلك الحنيفية المسلمة، فوفّقني له. ﴿**دِيناً قِيَماً**﴾: مستقيماً. ﴿**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**﴾: دين إبراهيم. ﴿**حَنِيفاً**﴾: مستقيماً. ﴿**وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾: وما كان من المشركين بالله، يعني: إبراهيم صلوات الله عليه؛ لأنه لم يكن ممن يعبد الأصنام...

الطبرسي: ثم أمر الله نبيَّهﷺ فقال: ﴿**قُلْ**﴾ يا محمد لهؤلاء الكفار وللخلق جميعاً ﴿**إِنَّنِي هَدَانِي**﴾ أي دلَّني وأرشدني ﴿**رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾. وقيل: أراد لطف لي ربّي في الاهتداء ووفَّقني لذلك.. ﴿**دِيناً قِيَماً**﴾، أي مستقيماً على نهاية الاستقامة. وقيل: دائماً لا ينسخ..

﴿**مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**﴾، وإنما وصف دين النبيّ بأنه ملة إبراهيم ترغيباً فيه للعرب لجلالة إبراهيم في نفوسها ونفوس كلّ أهل الأَديان، ولانتساب العرب إليه، واتفاقهم على أنه كان على حقّ ﴿**حَنِيفاً**﴾ أي مخلصاً في العبادة لله.. وقيل: مائلاً إلى الإسلام ميلاً لازماً لا رجوع معه.. وقيل: مستقيماً.. ﴿**وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾: يعني إبراهيم كان يدعو إلى عبادة الله وينهى عن عبادة الأَصنام...[1]

---

١. جامع البيان، للطبري ؛ مجمع البيان، للطبرسي ؛ تفسير المنار، بإيجاز .

والآية الرابعة : مقطع قرآني وردت فيه ﴿حَنِيفاً﴾ مرّتين، ينتهي بخطاب لرسول الله ﷺ أن يتبع ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، حالة كونه ﴿حَنِيفاً﴾ بعد أن بيّن المقطع ما يتصف به إبراهيمُ عليه السلام.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[1]

أقوال لهم كثيرة في ذلك، نكتفي بملخص ما ذكروه، وبالذات ما عن الشيخ الطبرسي في تفسيره: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾: قدوة ومعلماً للخير. إمام هدًى.. سمّاه أمّةً؛ لأنَّ قوام الأمّة كان به، أو لأنه بعمل أمّته، لأنه انفرد في دهره بالتوحيد، فكان مؤمناً وحده والناس كفاراً.. وقال ابن عباس: كان عنده من الخير ما كان عنده أمّة.

قال ابن الأعرابيّ يقال للرجل العالم أمّة، والأمّة الرجل الجامع للخير. قال الواحدي: قال أكثر أهل التفسير: أي معلماً للخير..

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

﴿قَانِتاً لِلهِ﴾: مطيعاً له دائماً على عبادته أو مصلياً.

﴿حَنِيفاً﴾: مستقيماً على الطاعة وطريق الحقِّ وهو الإسلام.

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: بل كان موحداً.

﴿شَاكِراً لأَنْعُمِهِ﴾: أي لأنعم الله معترفاً بها.

﴿ٱجْتَبَاهُ﴾: اختاره الله واصطفاه.

دلَّه إلى الدين المستقيم وهو الإسلام والتوحيد.﴿وَهَدَاهُ إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

---

١. سورة النحل : ١٢٠ ـ ١٢٣ .

﴿وَآتَيْنَاهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾: أعطيناه نعمة سابغة في نفسه وفي أولاده، وهو قول هذه الأمّة: «كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم». أو النبوة والرسالة. أو أنه ليس من أهل دين إلاّ وهو يرضاه ويتولاه. أو هي تنويه الله بذكره بطاعته لربِّه ومسارعته إلى مرضاته حتى صار إماماً يقتدى به ويهتدى بهداه. أو هي إجابة الله دعوته حتى أكرم بالنبوة ذريته، ففيها أنبياء ورسل راحوا يذكرونه وتذكره الأمم التابعة لهم، فيخلد ذكره الشريف؛ وحبّبه الله تعالى إلى كلّ الخلق، فكلّ أهل الأديان يتولونه؛ اليهود والنصارى والمسلمون، وحتى كفار قريش، فإنّ فخرهم إنما هو به، وذلك بإجابة دعوته: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلآخِرِينَ﴾.[1]

الطبرسي: أي ثناء حسناً في آخر الأمم وذكراً جميلاً وقبولاً عاماً في الذين يأتون بعدي إلى يوم القيامة، فأجاب الله سبحانه دعاءه، فكلّ أهل الأديان يثنون عليه ويقرُّون بنبوته، والعرب تضع اللسان موضع القول على الاستعارة؛ لأنَّ القول يكون بها، وكذلك يسمون اللغة لساناً، قال الأعشى:

إنِّي أتَتْنِي لِسانٌ لا أسُرُّ بِها ... مِنْ عَلْوَ لا عَجَبٌ منها ولا سخرُ

وقيل: إنَّ معناه واجعل لي ولد صدق في آخر الأمم يدعو إلى الله ويقوم بالحقِّ وهو محمد صلى الله عليه وآله.

﴿وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّالِحِينَ﴾ ولم يقل: لفي أعلى منازل الصالحين مع اقتضاء حاله ذلك ترغيباً في الصلاح، فإنه عزَّ اسمه بيَّن أنه عليه السلام من جملة الصالحين مع علو رتبته وشرف منزلته تشريفاً لهم، وتنويهاً بذكر من هو منهم، وناهيك بهذا الترغيب في الصلاح وبهذا المدح لإبراهيم عليه السلام أن يشرف جملة هو منها حتى يصير الاستدعاء إليها

---

١. سورة الشعراء : ٨٤ .

بأنه فيها!

وبعد ذكر ما اتصف به إبراهيم من صفات عظيمة، وتحلّيه بمناقب جليلة، خاطب الله تعالى رسوله الحبيب محمداً الخاتم بقوله: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾. فإنَّ خير دليل على صحّة نهج إبراهيم عليه السلام، وسلامة مشروعه التوحيدي وشريعته، التي لا يميل عنها أبداً؛ أنَّ دينه لم يكن مختصّاً بزمانه، بل جعلته السماء عاماً وشاملاً لمن سيأتي بعده، فأوحى الله تعالى لنبيّه وخاتم رسله وأنبيائه وحبيبه محمد صلى الله عليه وآله بعد قرون طويلة أن يتّبعه في ذلك ويقتدي به، وهذا يُعدُّ من أعظم الفضائل التي تمتّع بها خليلُ الرحمن، وقمة مناقبه وحسناته؛ فكلّنا يعرف أنَّ إبراهيم عليه السلام منحته السماء نعماً وفضائل كثيرة، ولكنَّها ختمت بأعظم نعمة وأزكى فضيلة وأكمل منقبة؛ ألا وهي اتباع سيد الخلق صلى الله عليه وآله له عليه السلام، فما أكمل تلك الحنيفيّة، وما أعظمها، وما أحسنها وأصدقها!

ولهم في ﴿**ثُمَّ**﴾ كلام؛ كونها حرف عطف، وعطف ﴿**أَوْحَيْنَآ**﴾ وهي فعل وفاعل و ﴿**إِلَيْكَ**﴾ متعلقان بـ ﴿**أَوْحَيْنَآ**﴾ بثم، التي تدلُّ على التراخي والتباعد إشعارٌ بالمكانة السميا والمنزلة العليا لمحمد صلى الله عليه وآله، وأنّ أجلّ ما أُوتي إبراهيم من النعمة اتباع محمد لشريعته..

الزمخشري: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ..**﴾: في ﴿**ثُمَّ**﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله صلى الله عليه وآله، وإجلال محلّه، والإيذان بأنَّ أشرف ما أوتى خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجلَّ ما أوتى من النعمة، اتباع رسول الله صلى الله عليه وآله لملّته، من جهة أنها دلّت على تباعد هذا النعت فى المرتبة، من بين سائر النعوت التى أثنى الله عليه بها.

ابن عاشور: ﴿**ثُمَّ**﴾ للترتيب الرتبي المشير إلى أنَّ مضمون الجملة المعطوفة متباعد في رتبة الرفعة على مضمون ما قبلها تنويهاً جليلاً بشأن النبي صلى الله عليه وآله وبشريعة الإسلام، وزيادة في التّنويه بإبراهيم صلى الله عليه وآله، أي جعلناك متّبعاً ملّة إبراهيم، وذلك أجلّ ما أولياكما

من الكرامة...

ثمَّ يقول مشيراً إلى مزاعم باعتقاد الحنيفية قبل البعثة النبوية؛ إما من قبل فريق يأتي الكلام عنهم، وإما من قبل غيرهم: ﴿**أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ..**﴾ للتّنبيه على أن اتّباع محمد ملّة إبراهيم كان بوحي من الله وإرشاد صادق، تعريضاً بأن الذين زعموا اتباعهم ملّة إبراهيم من العرب من قبلُ قد أخطأوها بشبهة مثل أميّةَ بن أبي الصَلت، وزيد بن عمرو بن نُفيل، أو بغير شبهة مثل مزاعم قريش في دينهم...

وحول ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ هو مما أوحاه الله إلى محمدﷺ المحكي بقوله: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ..**﴾، وهو عطف على ﴿**حَنِيفاً**﴾ على كلا الوجهين في صاحب ذلك الحال؛ وانتصب ﴿**حَنِيفاً**﴾ على الحال من ﴿**إبْراهِيم**﴾ فيكون زيادة تأكيد لماثله قبله، أو حالاً من ضمير ﴿**إِلَيْكَ**﴾ أو من ضمير ﴿**اتَّبِعْ**﴾، أي كن يا محمد ﴿**حَنِيفاً**﴾ كما كان إبراهيم ﴿**حَنِيفاً**﴾.

فعلى الوجه الأول يكون الحال زيادة تأكيد لقوله قبله ﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾.[1] وعلى الوجه الثاني يكون تنزيهاً لشريعة الإسلام المتبعَة لملّة إبراهيم من أن يخالطها شيء من الشرك.

ونُفي كونه من المشركين هنا بحرف «مَا» النافية؛ لأنَّ «مَا» إذا نفت فعل «كَانَ» أفادت قوّة النفي ومباعدة المنفي. وحسبك أنها يبنى عليها الجحود في نحو ما كان ليفعل كذا. فحصل من قوله السابق ﴿**وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، ومن قوله هنا: ﴿**وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، ثلاث فوائد: نفي الإشراك عن إبراهيم في جميع أزمنة الماضي، وتجدّد نفي الإشراك تجدّداً مستمرّاً، وبراءته من الإشراك براءة تامة.

---

١. سورة النحل : ١٢٠ .

وقد علم من هذا أن دين الإسلام منزّه عن أن تتعلّق به شوائب الإشراك؛ لأنه جاء كما جاء إبراهيم معلناً توحيداً لله بالإلهية ومجتثّاً لوشيج الشرك...

وعن الحكمة في الاتباع، يقول محمد رشيد رضا: وأما أمره تعالى لخاتم رسله بالإخبار بأن ما هداه تعالى إليه من الدين القيم هو ملة إبراهيم، فهو بمعنى أمره باتباع ملة إبراهيم.. فحكمة كلّ من الإخبار والأمر إستمالة العرب، ثم أهل الكتاب إلى الإسلام ببيان أنَّ أساسه وقواعد عقائده ودعائم فضائله هي ما كان عليه إبراهيم المتفق على هداه وجلالته![1]

الاتباع :

وقد وقع كلام بينهم في أي شيءٍ وقع أو يتحقق الاتباع من قبله ﷺ أفي العقائد أم في الشرائع أو في وسائل الدعوة..؟ ﴿**أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾ مستقيم الطريقة.. في العمل بسنّته... في الإسلام.. في جميع ملّته إلا ما أمر بتركه.. في مناسك الحجِّ.. في التبري من الأوثان. في الدعاء إلى توحيد الله وخلع الأنداد له، في إحياء شرع ابراهيم عليه السلام.

الطبري:.. ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ**﴾ يا محمد، وقلنا لك: ﴿**ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**﴾ الحنيفية المسلمة، ﴿**حَنِيفاً**﴾ مسلماً على الدين الذي كان عليه إبراهيم، بريئاً من الأوثان والأنداد التي يعبدها قومك، كما كان إبراهيم تبرأ منها!

وملخص قول الرازي: فالله سبحانه وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بأنه ﴿**وَمَا**

---

١. انظر مجمع البيان، للشيخ الطبرسي ؛ وتفسير الطبري ؛ وإعراب القرآن الكريم، آل درويش ؛ والكشاف، للزمخشري ؛ والبحر المحيط، أبوحيان ؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي ؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور ؛ تفسير المنار : الآية .

﴿كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فلما قال: ﴿ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ كان المراد ذلك، أو متابعته في كيفية الدعوة إلى التوحيد، وهي أن يدعو إليه بطريق الرفق والسهولة، وإيراد الدلائل مرة بعد أخرى بأنواع كثيرة على ما هي الطريقة المألوفة في القرآن.

الشوكاني:.. ﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾، وأصل الملة اسم لما شرعه الله لعباده على لسان نبيّ من أنبيائه. وقيل: والمراد هنا اتباع النبيّ ﷺ لملة إبراهيم في التوحيد والدعوة إليه. وقال ابن جرير: في التبرّي من الأوثان، والتديّن بدين الإسلام. وقيل: في مناسك الحج. وقيل: في الأصول دون الفروع. وقيل: في جميع شريعته، إلاّ ما نسخ منها، وهذا هو الظاهر، وأما ابن عاشور فله كلام مفصّل حيث يقول: ومعنى اتّباع محمد ملّة إبراهيم الواقع في كثير من آيات القرآن أنَّ دين الإسلام بُني على أصول ملّة إبراهيم، وهي أصول الفطرة، والتوسّط بين الشدّة واللّين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾،... فالشريعة التي تبنى تفاصيلها وتفاريعها على أصول شريعة تعتبر كأنها تلك الشريعة...

وليس المراد أنَّ جميع ما جاء به الإسلام قد جاء به إبراهيم عليه السلام إذ لا يخطر ذلك بالبال، فإنَّ الإسلام شريعة قانونية سلطانية، وشرع إبراهيم شريعة قبائلية خاصة بقوم، ولا أنَّ المراد أنَّ الله أمر النبيَّ محمداً باتّباع ملّة إبراهيم ابتداءً قبل أن يوحي إليه بشرائع دين الإسلام؛ لأنَّ ذلك وإن كان صحيحاً من جهة المعنى وتحتمله ألفاظ الآية، لكنه لا يستقيم إذ لم يرد في شيء من التشريع الإسلامي ما يشير إلى أنه نَسْخ لما كان عليه النبيّ من قبلُ. فاتّباع النبيّ ملّة إبراهيم كان بالقول والعمل في أصول الشريعة من إثبات التوحيد والمحاجّة له، واتّباع ما تقتضيه الفطرة. وفي فروعها مما أوحى الله إليه من الحنيفية مثل الختان وخصال الفطرة والإحسان.

فيما يذهب القرطبي إلى أنَّ الصحيح الاتباع في عقائد الشرع دون الفروع؛ لقوله تعالى: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾.[1]

وقفة نافعة: وقد جاءت هذه الآيات تخاطب رسول الله ﷺ وتأمره باتباع ملّة إبراهيم عليه السلام ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً...**﴾، وفي أخرى تأمره بالحنيفية: ﴿**وَ أَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً...**﴾، أو ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً..**﴾، إضافةً إلى ما قرره رسول الله ﷺ علناً، كما ذُكر أعلاه، حين أمره الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ**﴾.[2]

وبالتالي فهي متابعته ﷺ لملّة إبراهيم عليه السلام، لما شرعه الله على يديه، وإقامته لنهجه المتمثل بالحنيفية. ولعلَّ هذا يعدُّ من جملة الحسنة، التي آتاها الله تعالى إبراهيم عليه السلام أن يؤمر سيدُ الخلق باتباعه شريعةً واعتقاداً ومنهجاً..

هذا إضافةً إلى آية الاقتداء بما سبقه من الأنبياء والرسل: ﴿**... أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾.[3]

أفلا يعني هذا أنَّ المتبوع أفضل من التابع؟! أو أنَّ أمر رسول الله ﷺ بذلك، لا يضعنا أمام هكذا سؤال كبير، فقد يؤمر الفاضل بالعمل بالصواب والحقّ الذي سبقه إليه

---

١. انظر مجمع البيان، للطبرسي ؛ وتفسير الطبري ؛ ومفاتيح الغيب، للرازي ؛ فتح القدير، للشوكاني ؛ والتحرير والتنوير، لابن عاشور ؛ والجامع لأحكام، القرآن للقرطبي: الآية ١٢٣ النحل .

٢. سورة الأنعام : ١٦١ ـ ١٦٣ .

٣. سورة الأنعام : ٩٠ .

المفضول، وهو لا يقدح بأفضليته!

سؤال يذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره للآية ١٢٣ من سورة النحل، وجوابه عنه، ومتى قيل: إنَّ نبيَّنا كان أفضل منه، فكيف أمر الفاضل باتباع المفضول؟ فجوابه أنَّ إبراهيم عليه السلام سبق إلى اتباع الحقِّ، ولا يكون في سبق المفضول إلى متابعة الحقِّ زراية على الفاضل في اتباعه! كما أنَّ هناك أجوبةً لبعض المفسرين منهم: القرطبي، حيث قال: مسألة: في هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول والعمل به، ولا درك على الفاضل في ذلك؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وآله أفضل الأنبياء عليهم السلام، وقد أمر بالاقتداء بهم، فقال: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ**﴾، وقال هنا: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً...**﴾.

ابن كثير: وليس يلزم من كونه صلى الله عليه وآله أمر باتباع ملّة إبراهيم الحنيفية، أن يكون إبراهيم أكمل منه فيها؛ لأنه عليه السلام قام بها قياماً عظيماً، وأكملت له إكمالاً تاماً؛ لم يسبقه أحد إلى هذا الكمال، ولهذا كان خاتم الأنبياء وسيد ولد آدم على الإطلاق، وصاحب المقام المحمود، الذي يرغب إليه الخلق، حتى الخليل عليه السلام.

محمد رشيد... وإذ علمنا حكمة الأخبار والأمر باتباع ملّة إبراهيم، فلا مجال بعدُ لتوهم أنَّ إبراهيم أفضل، ولا أنَّ ملّته أكمل، إذ ليس هذا بمناف ولا بمعارض لنصّ آية إكمال الدين، وإتمام النعمة على العالمين، على لسان خاتم النبيين، المبعوث رحمة للخلق أجمعين.

أما الشوكاني فيقول: ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**﴾ يا محمد مع علوّ درجتك وسموّ منزلتك، وكونك سيد ولد آدم ﴿**أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**﴾، ﴿**فَبِهُدَاهُمُ ٱقْتَدِهْ**﴾ وقد أمر النبي صلى الله عليه وآله بالاقتداء بالأنبياء مع كونه سيدهم، فقال تعالى:

﴿... أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾.[1] ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.[2]

الإعراب :

﴿**حَنِيفاً**﴾: حال من المضاف اليه وهو ابراهيم، كما في رأيت وجه هند قائمة؛ لأنَّ رؤية وجه هند يستلزم رؤيتها، فالحال هنا تبين هيئة المفعول، أو من المضاف وهو الملّة. وتذكير ﴿**حَنِيفاً**﴾ حينئذ بتأويل الملة بالدين؛ لأنهما متحدان ذاتاً والتغاير بالاعتبار، ولم يقل: حنيفة؛ لكون الملّة بمعنى الدّين، أو لكسبه التّذكير من المضاف إليه. فقد نُصبت مفردة ﴿**حَنِيفاً**﴾ في هذه الآية على الحال، والمعنى بل نتبع ملّة إبراهيم في حال حنيفيته،.. فيما الرازي يذكر قولين في النصب:

أحدهما: قول الزجاج أنه نصب على الحال من إبراهيم كقولك: رأيت وجه هند قائمة.

الثاني: أنه نصب على القطع أراد بل ملة إبراهيم الحنيف، فلما سقطت الألف واللام لم تتبع النكرة المعرفة، فانقطع منه فانتصب، قاله نحاة الكوفة.[3]

إنَّ الخطر في الناس أن يرى الإنسان فرداً كان أو جمعاً أنه يملك الحقيقة كلها، أو أن يرى أنه على الحقّ ومن حوله كلهم على الباطل، وأنَّ الهداية بيده، والخير مقصور عليه، والخطر الأكبر أن يرى أنه على الحقّ بينما هو على الباطل، يحسب أنه المهتدي

---

١. مجمع البيان، للطبرسي ؛ والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي : الآية؛ وانظر تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ؛ تفسير المنار ؛ فتح القدير: الآية ١٢٣ النحل ، والآية ١٦١ الأنعام .

٢. سورة البقرة : ١٣٥ .

٣. تفسير البحر المحيط، أبوحيان ؛ مفاتيح الغيب، الرازي : الآية .

وهو ضالٌ، أنه المصلح وهو مفسدٌ، وهكذا نجده منحرفاً ويحسب أنه مستقيم، مسيئاً ويحسب أنه محسن... وهذا داءٌ ابتلي به أتباع الأديان السماويّة ومذاهبها؛ فضلاً عن المذاهب الأرضيّة ..

وعن هذا الداء، وبعد أن يذكر أنَّ اليهود قالت: إنَّ دينهم على الحقِّ، وأنَّ الهداية محصورة في اليهودية ، وكذلك ادّعت النصارى.

يقول السيد السبزواري: إنَّ ذلك معتقد كلّ ذي دين أنَّ دينهم خير الأديان، وأنَّ كتابهم أبديٌّ لايقبل التغيير والتبديل ، وطرق الهداية منحصرة في دينه، ومقتضى ذلك أن يدعو كلُّ واحد من الفريقين الناس إلى دينه.

ثمَّ يقول: وهذا النوع من المنهج فن الفطريات لكلّ من يعتقد بشيء ويرى صحته، وهو من الجهل المركب، وداء ابتلي به جميع الأمم حتى بعض فرق المسلمين، الذي يعتقد صحة مذهبه أو عقيدته وبطلان غيرها.[1] فهنا قولان كلّ منهما يمثل موقفاً ودعوةً مما ذكرنا؛ راحا يتنافسان فيما بينهما، ويضغطان على الساحة المسلمة: كُونُواْ هُوداً، تَهْتَدُواْ كُونُواْ نَصَارَى، تَهْتَدُواْ.

وهذا نظير قولهم: ﴿**وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾. ولا يخلو كلٌّ منهما من تفاخر ومزاعم في كونها هي الأحقُّ من غيرها، يتضح هذا إذا ما عدنا إلى سبب النزول؛ فقد نزلت في زعماء يهود المدينة وفي نصارى نجران، فعن ابن عباس أنَّ عبد الله بن صوريا وكعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وجماعة من اليهود، ونصارى أهل نجران؛ السيّد والعاقب وأصحابهما، خاصموا أهل الإسلام، كلّ فرقة تزعم أنها أحقُّ بدين الله من غيرها،

---

١. تفسير مواهب الرحمن : الآية .

فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وقالت النصارى: نبينا عيسى أفضل الأنبياء وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب. وكلّ فريق منهما قالوا للمؤمنين: كونوا على ديننا... وقيل: إنَّ ابن صوريا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمد، تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله هذه الآية لتشكل القول الثالث: ﴿**... قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾، ضمن مقطع قرآني لعلّه يبدأ بالآية ١٢٩ إلى الآية ١٤٠ البقرة.

ولم يأتِ القول الثالث هذا؛ إلاّ إضراباً بـ: (بل) إبطالاً لقولهم، ولم يأتِ أيضاً إلاّ بدعوتهم إلى العودة إلى نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، وأنَّ الهداية تتحقّق به لا بغيره وبملّته لا بغيرها، وبالتالي فهو يشكّل الردَّ الواضح المؤكّد أنَّ الهداية ليست بمزاعمكم، بل هي بحنيفية إبراهيم عليه السلام، الذي لم يكن من المشركين.

السيد الطباطبائي بعد أن يذكر اختلافاتهم وانشقاقاتهم، يأتي إلى قوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى**﴾. فيقول عنه: إجمال تفصيل، معناه وقالت اليهود: كونوا هوداً تهتدوا، وقالت النصارى: كونوا نصارى تهتدوا، كلّ ذلك لتشعبهم وشقاقهم.

ثمّ يقول عن قوله تعالى: ﴿**... قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾ جواب عن قولهم أي قل، بل نتبع ملة إبراهيم حنيفاً، فإنها الملة الواحدة التي كان عليها جميع أنبيائكم، إبراهيم، فمن دونه، وما كان صاحب هذه الملة وهو إبراهيم من المشركين ولو كان في ملته هذه الانشعابات، وهي الضمائم التي ضمها إليها المبتدعون، من الاختلافات لكان مشركاً بذلك، فإن ما ليس من دين الله لا يدعو إلى الله سبحانه، بل إلى غيره وهو الشرك، فهذا دين التوحيد الذي لايشتمل على ما ليس من عند الله تعالى.

السيد السبزواري: وقد أبطل سبحانه مدّعاهم بدليل إلزامي لهم، فقال مخاطباً

لنبيّه ﷺ إتماماً للحجّة والبيان، وتلقيناً للبرهان، وتثبيتاً لشريعته ونبوّته، بل إظهاراً للوحدة بين أصل الوحي وقول الموحى إليه في الحجّية، وتوطئة لأمر المسلمين بهذا المقال: ﴿... **قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾.

وقد جاءت هذه الآية لتبيّن الموقف النهائي لهؤلاء ولغيرهم من المشركين: ﴿**فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَآ آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ**﴾.[١]

ابن عاشور: والفاء للتفريع على قوله تعالى: ﴿**قُولُواْ آمَنَّا بِٱللهِ**﴾، فإن اتبعكم الذين قالوا: ﴿**كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ**﴾.[٢]

فإيمانهم اهتداء، وليسوا قبل ذلك على هدًى؛ خلافاً لزعمهم أنهم عليه من قولهم: ﴿**كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا**﴾.[٣]

أما لماذا الرجوع إلى نبيِّ الله إبراهيم عليه السلام؟ فلأنه ﴿**كَانَ حَنِيفًا**﴾.

أي مائلاً عن كلّ ما كان عليه أهل عصره من الشرك والضلال، فاعتزلهم بالحقِّ وللحقِّ، وانفرد بحب الله تعالى، كيف لا؛ وهو القائل: ﴿**وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّاً**﴾.[٤]

ولأنه كَانَ ﴿**مُسْلِمًا**﴾ كما في الآيات الأخرى موضع كلامنا: وليس المراد بكونه عليه السلام ﴿**مُسْلِماً**﴾ أنه كان على ما جاء به رسول الله ﷺ من الرسالة الخاتمة والشريعة الخاتمة، وإن كانت على ملّته عليه السلام، فقد جاءت هذه الشريعة كما معلوم وقرآنها العزيز

---

١. سورة البقرة : ١٣٧ .

٢. سورة البقرة : ١٣٦ .

٣. الميزان ؛ ومواهب الرحمن ؛ التحرير والتنوير : الآية .

٤. سورة مريم : ٤٨ .

من بعده، كما جاءت من بعده كلٌّ من التوراة والإنجيل. وإنما المراد بكونه ﴿مُسْلِماً﴾ انطلاقاً من ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَاللهِ الْإِسْلَامُ﴾.[1]

فالدين واحد والشرائع متعددة، وأنه كان متحقّقاً بمعنى الإسلام الذي يدلّ عليه لفظه وهو التوحيد والإخلاص لله في عمل الخير..

فالإسلام بهذا المعنى بدأ منه ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾.[2] أي وجهه إلى الله تعالى وحده مخلصاً له الدين والطاعة، وقد أسس إبراهيم بذلك مشروعاً توحيديًّا فريداً لمن بعده من الأنبياء والرسل والصالحين؛ لأنَّ منهجه هو التوحيد الشامل الجامع لكلّ دين، فهو الهدى المطلق، وهو الدين الحقّ، وهوالإسلام الخالص والمنهج الأحسن:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾.[3] ولأنه لم يكن على ملّة من الثلاث: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً ... وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

فأما الشرك والمشركون فقد فرَّ منه ومنهم إلى التوحيد، والآيات القرآنيّة تحكي لنا رحلته التأسيسية ضدَّ الشرك ومعالمه ورجاله، سواء أكان في عصره، أم في العصور التي تلته، وسواء أكان شرك وثنيّة وأصنام، أم كان شرك يهوديّة أونصرانيّة، فالشرك هو هو وإن تعددت أشكاله، وهو على الضدِّ من التوحيد، الذي يدعو إليه إبراهيم، وأُسست الحنيفيّة عليه.

---

١. سورة آل عمران : ١٩ .

٢. سورة الحجّ : ٧٨ .

٣. سورة النساء : ١٢٥ .

وكما أنَّ الآية تعريض بهما؛ وايذان ببطلان ما يدعونه من اتباع إبراهيم؛ لأنهما دخلا في دائرة الشرك حينما لاذوا بأسبابه قولاً وعملاً واعتقاداً، وكان منها قولهم: ﴿**عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ**﴾ ، ﴿**الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ**﴾.

إضافةً إلى أنه ينافي ما نطق به عيسى عليه السلام، وأيضاً تكذيب له: ﴿**قَالَ إِنِّي عَبْدُاللهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا**﴾.[1]

فكذا شرك الجزيرة العربية؛ قبائل قريش وغيرها من عرب الجاهليّة، فهم وإن ادعو أنّهم على ملّة إبراهيم وأنّهم حنيفيّون، وكانوا يسمّون أنفسهم حنفاء، لكنهم كانوا أيضاً كأولئك مشركين حين زعموا أنَّ الملائكة بنات الله، كما حكى عنهم التنزيل العزيز: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ**﴾.[2]

وكانوا وثنيّين؛ عبدوا الأصنام، فأساؤوا إلى توحيد الله تعالى، ولم يأخذوا من الحنيفية الإبراهيميّة التي أساسها التوحيد؛ إلاّ قليلاً، حتى قيل: إنَّ العرب لم تتمسك في الجاهليّة بشيءٍ من دين إبراهيم غير الختان وحجِّ البيت، كانت تدين بهذه، وكانت تشرك، وبالتالي فهم ليسوا على ملّة إبراهيم، التي يزعمون، وجاءت الآية تبرئةً لإبراهيم مما أرادوا إلصاقه به، ولتنفي عنه هذه الثلاثة، ولتدفع مزاعم أولئك وأولاء ممن اتصف بالشرك وعمل به من أنّهم على ملّة إبراهيم، ولتنصّ نصًّا قاطعاً على أنّه:

﴿**كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً**﴾ وهم ليسوا كذلك. ولأنّه موضع الاتفاق، فملَّتُه عليه السلام هي الإسلام ، منذ ﴿**إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**﴾. ولم يكتفِ بنفسه، وإنما جعلها في ذريته حين راح يوصي بها: ﴿**... إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ ٱللهَ**

---

١. سورة مريم : ٣٠ .

٢. سورة النحل ٥٧ .

ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـهَكَ وَإِلَـهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وبعد أن حكى التنزيل العزيز الوصية المذكورة لإبراهيم ويعقوب، ذكر ما أمر الله تعالى رسوله والمؤمنين أن يعلنوا في وضوح عن عقيدتهم الحقّة بإبراهيم فمن دونه: **﴿قُولُواْ آمَنَّا بِٱللهِ وَمَآ أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.**[1]

فمن الثابت أنَّ دعوة نبيِّ الله إبراهيم، هي الأصل لجميع تلك الديانات، وكان عليها جميع أنبيائها ورسلها وكتبها والصالحين، فهي دعوة التوحيد الخالص لا تثليث كما يقول النصارى ولا تشبيه كما يقول اليهود، ولما كانت كذلك، فهي الملّةَ الوحيدة التي لا زيغ فيها ولا انحراف، وهي الأصل: **﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾**.[2] وهي المتّفق عليها والمرجع إذا ما وقع الاختلاف..

... فالمتفق أولى من المختلف. وقد اتفق الكلُّ على صحة دين إبراهيم فاتباعه أولى، وهذا جواب إلزامي.

ثم لما كان من المحتمل أن يزعم اليهود والنصارى أنهم على دين إبراهيم أزيحت علتهم بقوله : **﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾**. لكون النصارى قائلين بالتثليث واليهود بالتشبيه، وأيضاً قالوا: عزير ابن الله والمسيح ابن الله، فليسوا من ملة إبراهيم التي هي

---

١. سورة البقرة : ١٣٦ .

٢. سورة الحجّ : ٧٨ .

محض التوحيد وخالص الإسلام في شيء.[١]

في تفسير المنار: إنَّ اليهود يدعون إلى اليهوديّة، التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها ـ والنصارى يدعون إلى النصرانية التي هم عليها ويحصرون الهداية فيها.. ولو صدق أيٌّ واحد منهما لمّا كان إبراهيم مهتدياً؛ لأنه لم يكن يهوديّاً ولا نصرانيّاً، وكيف وهم متفقون على كونه إمام الهدى والمهتدين؟! لذلك قال تعالى ملقّناً لنبيّه البرهان الأقوى في محاجتهم: ﴿**قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**﴾.

أي بل نتبع أو اتبعوا ملّة إبراهيم، الذي لا نزاع في هداه ولا في هديه، فهي الملّة الحنيفيّة القائمة على الجادة بلا انحراف ولا زيغ، العريقة في التوحيد والإخلاص بلا وثنيّة ولا شرك...[٢]

السبزواري: وإنما ذكر سبحانه إبراهيم عليه السلام، وأمرهم باتباع ملّته؛ لأنه لا ينازع أحدٌ من أهل الكتاب في أنه كان مهتدياً، بل يعتبر إمام المهتدين، فإذا كان ادّعاء كلٍّ واحد منهم صحيحاً؛ لكان إبراهيم عليه السلام غير مهتدٍ، وهم لا يقبلونه. ومن ذلك يُستفاد أنَ الهداية منحصرة في اتباع ملّة إبراهيم عليه السلام، وأنَّ موسى وعيسى عليهما السلام أيضاً كانا متّبعين لملّته؛ لأنها الدين الحنيف القائم على الصراط المستقيم، والمبني على التوحيد والإخلاص، ونفي الشرك، والحقُّ أحقُّ أن يُتبع![٣]

١. تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، القمي النيسابوري (ت ٧٢٨ هـ) : الآية .

٢. تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤هـ) : الآية.

٣. مواهب الرحمن في تفسير القرآن : البقرة : ١٣٥.

المـــنابـع :

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ،
محمود شكري الآلوسي البغدادي ، المحقق : بهجة الأثري ، الناشر : دار الكتاب المصري ٢ : ١٩٤ـ ١٩٦.
مجلة ميقات الحج ،
الأصنام في العددين ٤٧ ، ٤٨ من هذه المجلة .
البحر المحيط في تفسير القرآن ؛
أبوحيان الأندلسي ، المحقق : صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ٦ : سورة الحج : ٧٨ .
الميزان في تفسير القرآن ، للعلامة محمد حسين الطباطبائي ،
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت ـ لبنان ، الجزء الرابع عشر: ٤١٤ سورة الحج الآية ٧٨ .
لسان العرب لابن منظور ،
الناشر: دار صادر ـ بيروت: حنف...
معجم مقاييس اللغة ، لابن فارس ، المحقق عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر: حنف.
كتاب العين ، للفراهيدي ، المحقق ، الناشر: دار ومكتبة الهلال: الجزء ٣ : حنف. د. مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي .
المحكم والمحيط الأعظم ، لابن سيده ، تحقيق عبد الحميد هنداوي ، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت .

الملل والنحل، للشهرستاني، المحقق: محمد سيد كيلاني، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت .
شمس العلوم، للحميري، المحقق: د. حسين بن عبدالله العمري ـ مطهر بن علي الإرياني ـ د. يوسف محمدعبدالله، الناشر: دار الفكر المعاصربيروت ـ لبنان، دارالفكر دمشق، سورية: حنف .
الكليات ؛ معجم في المصطلحات والفروق لأبي البقاء الحنفي ، تحقيق عدنان درويش ، محمد المصري ، الناشر : مؤسسة الرسالة ـ بيروت : : ١ : ٣٥٩ : حنف .
غريب القرآن ، للاصفهاني ،
المحقق صفوان عدنان الداودي ، الناشر : دار القلم ، دار الشامية ـ دمشق ، بيروت ،كتاب الحاء : ١ : ٣٦٠ : حنف .
الشعر والشعراء ، لابن قتيبة الدينوري ، الناشر : دار الحديث ، القاهرة . أمية بن أبى الصلت.
شعراء النصرانية قبل الإسلام ، لويس شيخو ، دار المشرق، بيروت : ٢١٩ وما بعدها،
الأغاني ، للاصفهاني ، ١٦ : ٤٤ .
المفصل في تاريخ العرب...، د. جواد علي، دار العلم للملايين، ٦ : ٤٧٨ ـ٥٠٠ .
ديوان أمية ، تحقيق السطلي ، دار مكتبة الحياة : ١٨ .
تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، للطبري .
الكشاف ، للزمخشري ، تحقيق كلّ من عادل أحمد ، وعلي محمد ، ومشاركة الدكتور فتحي عبد الرحمن.
مجمع البيان ، للطبرسي .
التحرير والتنوير ، لابن عاشور .
مواهب الرحمن في تفسير القرآن ،
السيد السبزواري : الآية ١٣٥ البقرة .

تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير .

تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا .

التفسير الكبير ، للطبراني .

تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، القمي النيسابوري : الآية .

إعراب القرآن الكريم وبيانه ؛ آل درويش ، وانظر في فوائده الحال المؤسسة والحال المؤكدة ٦ : ٤٢٨ ـ ٤٣٠ .

التفسير الكبير ، للرازي .

تاريخ الأدب العربي ؛ العصر الجاهلي ، أحمد شوقي عبد السلام المشهور بشوقي ضيف ، الناشر : دار المعارف .

السيرة النبوية ، لابن هشام .

كمال الدين وتمام النعمة، للشيخ الصدوق .

بحار الأنوار ،

العلاّمة المجلسي ١٦: ٢١ عن أبي الحسن البكري في كتاب الأنوار.

الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي ، الناشر دار الفكر ، بيروت : ١ سورة العلق .

سير أعلام النبلاء،

شمس‌الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة .

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، لابن هشام، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيل،

تحقيق : عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢ : ٣٤٧ ـ ٣٧٤ .

المنمق في أخبار قريش، لمحمد بن حبيب البغدادي .
تاريخ دمشق، لابن عساكر، ذكر من اسمه عثمان الفرصد : موضع في الشام .
دلائل النبوة، لأبي نعيم الاصبهاني .
الأعلام، للزركلي .
والبيان والتبيين، للجاحظ .
البداية والنهاية ـ وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير .